العقل المسلم مكانته وسماته (٢)

الحلقة الأخيرة

أ.د. محمود توفيق محمد سعد(*)

يُهديك نعت (العقل) بأنّه مسلمُ إلى أنّ له سماتٍ يَستمدّها من الإسلامِ كتابًا وسنة ممّا يجعلُه لَيْسَ كَمثلِه عقلٌ آخر، ولمّا كانتْ سِماتُ (العَقل المسْلم) وافرةً لا أُطيقُ جَهْدًا وَوَقتًا اسْتِقراءَها، كان ضَرورةً أن أخلّص ما هُو إِلَى الكليّة أقربُ.

(السمةُ الأولى: الأصل)

هُو عقلٌ قُوامُ حركتِه فِي جَمِيعِ شئونِه -علَى تعدُّدِها وتنوّعِها- قولُ اللهِ عز وجل: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (الإسْراء:١٩)

أصْلان جاء نَظمُهما فِي البيانِ القُرآنِيِّ على نَحْوٍ كاشِفٍ عنْ قِيمةِ كل وأهميتِهِ ومقدارِ الإلزام بكل: «الإيمان» و «السّعي إلى الآخرة» وكلّ يحتاجُ إلى تفصيلٍ وتَحقيقٍ لا يَتسِعُ المقامُ له هنا، فليكُن له فِي عَقلك مُتّسع، بِفتِي التّفكيرِ الحَكيمِ وَقَوِيمِهِ.

(السمةُ الثانية، الضّابط):

هُوَ عقلٌ منْ ضَوابطِ حَركتِهِ تأصِيلًا واستِمدادًا واسْتِرْفَادًا قولُ اللهِ عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسْراء:٣٦)

فِي السمة الأولى بيانٌ للأُصُولِ، وفِي هذه بيانٌ للضّابط العاصِمِ مِن القَواصِمِ، وَمَن لَمْ يَكُنْ مَلِيكًا لِلأُصُولِ والضَّوابِطِ فِقهًا وَعِرفانًا والْتزامًا، فما هُوَ بالّذِي نَحنُ إليْه نَقصِدُ: (العَقل المُسْلِم).

وَطَرِيفٌ لَطِيفٌ أنْ كانَتْ آية الأصْلِ، وَآيَةَ الضَّابِطِ لِحَرَكَةِ الْعَقلِ المُسْلِمِ فِي سُورَةِ (الإِسْراءِ): سُورَةِ كَمالِ الْمَعِيَّةِ الرَّبَّانِيَةِ لِسَيِّدِ البَشَرِيَّةِ الّذِي كَمُلَتْ فِيهِ العُبُودِيَةِ للهِ عز وجل فكانَ العَطاءُ الأكملُ ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)

أيْ: هُو ﷺ العَبْدُ السَّمِيعُ البَصِيرُ حَقا عَلَى نَحْوٍ لَمْ يَكُنْ لِغَيرِهِ مِنَ الأنْبياء، كَما لَمْ يَكُنْ لِغَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ مَا كَانَ لَهُ ﷺ مِن كَمالِ العُبُودِيَةِ والعِبادِيَةِ للهِ عز وجل تبصّر مقتضِيات الاستحقاق: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

لَمّا كانَ كذلك كان ﷺ الجديرَ بالعطاءِ الأوفى ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ فمَنْ كان له نصيبٌ مِن أمّتِهِ مِنْ مَقام (العُبُودِيَّة) الأشرف وَ(العِبادِيَّة) الأخلص لله تعالى الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ - من كان كذلك كانَ له نَصيبٌ على قَدْرِ ذَلِكَ مِن العطاءِ الأوْفَى ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ ولن يكون لك شيءٌ حميدٌ مِن صُورِ العطاءِ الأوفى إلّا إذا اسْتَطْعَمْتَ إسنادَ إراءَتِه إلى (نون) الجلال ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ وإضافة الآياتِ إليها ﴿ءَايَٰتِنَآ﴾، قِيمةُ الفِعلِ مِن جَلالِ شَأنِ الفاعلِ، وقيمةُ المُضافِ إليهِ مِن جَلالِ شَأن المُضافِ.

أوَ يُمكِنُ لِفُؤادٍ، وإن اتَّسَعَ اتّساعَ السَّماواتِ السّبعِ والأرَضِينَ السّبع أن يُحيطَ علمًا بتِلك القِيمَةِ؟ لا يَكونُ.

لكُلِّ هذا لَا يُمكنُ أن يتحقَّقَ نزيرٌ مِن حسْنِ تلقّي المَعانِي الإحْسانِيَّةِ المَكنُوزَةِ فِي هَذِه السُّورَةِ: سُورَةِ العَطاءِ الأوْفَى لِمَقَامِ النبوَّةِ المُحمّدِيَّةِ، إلّا لِمَن كان له قدمُ صِدق فِي مقام (العُبودِيّة) الصّفاءَ، وكانَ له نصيبٌ موفورٌ مِن السّمعِ الحَكيمِ، والبَصرِ النافذِ المُحيطِ.

وسُورةُ (الإسْراءِ) سُورةٌ جاءَتْ تَفصِيلًا لِما خُتِمَتْ بِه سورةُ (النّحلِ): ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨)

فكانَتْ سُورَةُ (الإسْراء) بيانًا لِلمَعِيّةِ القُدْسيّةِ الأجَلِّ، التَّبصُّرُ المتدبّرُ نَظمَ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ الوَارِدَتَيْنِ فِي هذِهِ السُّورَةِ بِهِ يُدْرَكُ عَظِيمُ الإلزامِ القُرآنيّ لِهذا العَقلِ: العَقلِ المُسْلِمِ.

= عقلٌ يَسْعَى لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ سَعْيَهُمَا، وهُوَ مُؤمِنٌ.

= وعقلٌ لا يقفُ إلّا ما لَيْسَ لَه بِهِ عِلمٌ، يَكفُرُ بِالتَّقْلِيدِ الأجْرَدِ مِن سبْرِ الأدِلَّةِ والبَراهِينِ، والأجردِ مِن الوَعْيِ بِالبَواعِثِ وَالمَقاصِدِ وَبِمَنْهَجِ الفِعْلِ وَأدواتِهِ، يَكفُرُ بِهذا التَّقْلِيدِ الأجْرَدِ وَيُجَرِّمُهُ.

عقلٌ إذا ما جاءَه النَّبأُ مِن السَّماءِ، وتَوثّق مِن ذلك، ولَم يُطِقِ العِرفانَ بِه على الوَجْهِ الأتمّ الأمثلِ، فإنّه يُمارِسُ ما طُلِبَ مِنهُ مُمارَسَتُهُ، ويَسعَى جاهِدًا أن يكونَ له نصيبٌ مِن العِلمِ الحكيمِ بِه، فإنْ تعذّر أوْ تَعسّر، فإنّه لا يَتوقَّفُ عَن الأخذِ بِهِ ثِقةً فِي المُنبِئِ بِهِ، فَثَمّ أمورٌ مَبْنِيّةٌ على التَّسْلِيمِ الحكيمِ، واليَقِينِ القويمِ بها، مِن أنَّ المكلّفَ بِها إنّما هُو العَلِيمُ الخَبِير.

التَّسْلِيمُ المُطلَقُ لِنبأ السَّماءِ قُرآنًا وسُنّةً سِمةٌ رئيسة مِن سِماتِ العَقل المُسْلِم ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٥١)

هُوَ فِيما يَتعلَّقُ بِغَيرِ نَبأ السَّماءِ لا يَقفُ إلّا ما لَهُ بِهِ عِلمٌ، مَهما كان شأن المُخبِرُ بِه، وَفِي نَبأ السَّماءِ قُرآنًا وَسنّة يَقولُها: سَمِعنا وأطعنا، كلٌّ مِنْ عندِ ربّنا، فيجمعُ بين الحسنيين:

العبودية الصّفاء لله ربّ العالمين، والعزة والتحرر من التقليد والتبعية لأحدٍ من الناسِ خَلا الأنبياءِ - عليهم الصّلاةُ والسّلامُ - ثُم يتوسّلُ بسَمعِه وطاعتِه إلى ربّه عز وجل أن يُبيّن لَه شَيئًا عَن حِكمَةِ ما جاء به النّبأ مِن السّماء وحيًا ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ٧)

(السمةُ الثالثة، الاستمداد):

هُو عقلٌ يَستَمِد مِن الوَحيِ قُرآنًا وَسُنةَ رُؤيَتَهُ المَعرِفِيّةَ لِلْحَياةِ كَوْنًا مُسَخَّرًا وإنسانًا مُسَخَّرًا لَهُ الكَوْنُ، وَيَستَمِدُّ مِنهُ - أيضًا - مَنهَجَهُ السّلوكيّ فِي تَفعِيلِ هَذِهِ الرُّؤيَةِ المَعرَفيّةِ واستِثمارِهَا.

وهذه تفصيلها نفتقر لتحقيق نزيرٍ منه إلى متسعٍ من الوقتِ والجهد والتسديد الربّانيّ، فإن أسلمةَ الرّؤية المعرفية أمرٌ فارقٌ رئيس بين العقلِ المسلمِ وغيرِه، وظنّي الوَثيقُ أنّه ما تأخّر المُسلمون في زمانِنَا هذا إلّا لِغَفلتِهم أوْ تَغافُلِهِمْ عَنِ الاستمْساكِ بهذِه السّمةِ في تحقيق رؤيتهم المَعرفيّة للحياة.

(السمةُ الرابعة، الطّلبة):

هُوَ عقلٌ يَطلُبُ الحِكمَةَ وَالحُجّةَ القَويمَةَ حَيثُ كانَتْ، يَرَى أنّهُ هُوَ الأحقُّ بأخذِها، أيًا كان صانِعُها، وإن رَغِبَ عَنها كل الأنام، وإنْ كانتْ فِي خزانةِ خَصِيمٍ مُبِين، الأهَمُّ الألزَمُ أن تكونَ حِكمَةً وأن تكُونَ حُجّةً قَويمَة، ولنْ تكُونَ كذلِكَ إلّا إذا كانَتْ ذَا نَسَبٍ عَريقٍ مَكِينٍ مَتِين بأصول (الإسلام) كتابًا وسُنّةً، كلُّ ما لَا يَتعاندُ معَ بيانِ الوَحيِ وَلَا يَتَباعَد وفي نفع هو الأحقّ بِأخذِهِ وبِربّهِ وباستثمارِه فيما خلقَ لَهُ، فذلك شُكرُ المنعِمِ بِه.

(السمةُ الخامسة، جوهر الطّلبة):

هُوَ عَقلٌ مُستَحضِرٌ فِي كُلّ أحْوالِهِ وَأفعالِهِ قَوْلَ سَيّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ فيما رَواه مسلمٌ في كتابِ (الإيمانِ) مِنْ صَحِيحِه بِسَندِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»(٦).

عَقلٌ عَليمٌ بأنّهُ مُكلّفٌ بِصُنعِ الجَمالِ وَإتقانِه فِي جَمِيعِ الأحْوالِ وَالأقوالِ والأفعالِ، عَقلٌ يَبغَضُ القُبحَ فِي كُلِ شيْءٍ، وَيعشَقُ الْجَمالَ الْمُنبَثقَ مِن الجلالِ، وَلِذا كَانَ مِن حِكْمَتِهِ فِيهِم: «إيّاكُمْ وَخَضراءَ الدِّمَنِ: الْمَرْأةُ الْحَسْناءُ فِي المَنْبَتِ السُّوءِ»، ومِن أصولِه: إيّاكمْ والثّقافَةَ الْمُنتَزِعَةَ فِي حَدائِقِ الْكُفرِ: فِي حدائقِ الْعَلْمانيَةِ الْفَلْسَفِيّةِ واللّبراليَةِ الْعَقَدِيّة.

---

(٦) صحيح مسلم، برقم: (٩١).

هُو عَقلٌ يُحِبُّ الأَصالَةَ فِي الجَمالِ: أن يَكُونَ الجَمالُ مُنبثِقًا مِن داخِلِ مَا قائِمٌ بِهِ، وَلَيسَ مِن خارِجِهِ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ عِنايَةُ هَذا العَقلِ فِي البَيانِ بالمَعانِي، فَجَعلَها مَعدِنَ الجَمالِ وَمَنجمه، وَجعَلَ الصُّورَةَ الدَّالَّةَ عَلَيهِ مَجلاهُ وَمَشهدَهُ، فَعِنايَتُهُ بالصُّورَةِ مِن عِنايتِهِ بالمَعْنى، وَدَلَّ بالإبلاغ فِي الاعتِناءِ بالصّورة على أنَّ أناقة المَجلَى وَالمشهدِ آيةٌ بيِّنةٌ على جلالِ المَنجم والمعدن وشرفه، تلك رُؤيَة العَقلِ المُسلِم للجمَال في كلّ شيْءٍ.

(جُمعة السّمات الكلية).

العقلُ المُسلِمُ المكون لحقيقته وجوهره إنما هو الإسْلامُ كتابًا وسنة، فوجودُه مرهونٌ بهما، لا يفترقان، ولا يتواجهان بتّةً، شعاره: النصُّ لِلعقلِ والعقلُ للنصّ بعضٌ لبعضٍ وإن لَمْ يشعُروا خدمٌ، رسالتُه خدمة (النص): (الوحي) الّذي هُو مصدرُهُ ورافِدُه.

وهُوَ عَقلٌ يُوقِن بأمْرَيْنِ رَئيسَيْنِ:

- يُوقِنُ أنَّ مُنطَلَقَهُ الّذِي يَصْدُرُ عَنْهُ: (بَيانُ الوَحْي)، يَمْلِكُ الحَقِيقةَ المُطلَقَةَ الَّتِي لا سَبيلَ إلى نَقْضِها بأيِّ سَبِيلٍ مِن سُبُلِ النَّقْضِ القَويمَةِ، إنَّها مِن اللهِ عز وجل وَمَا كانَ مِنه تعالى لا يُنقَضُ بتّة.
- ويُوقِنُ أنَّ فعلَهُ هُو فِي هذِهِ الحَقِيقةِ المُطلَقة لا يَملِكُ الحَقِيقةَ المُطلقة، وَلا يَملِكُ الصَّوابَ الَّذِي لَا يَعْترِيهِ الخَطَأُ، فِطرَةٌ فِي العَقلِ البَشريِّ أن يُخطِئ، هُوَ يُوقِنُ أنَّ فعلَه فِي هذَا الّذِي يَصدُرُ عَنه قابلٌ للتّجدّدِ، بلْ للتّغيُّرِ، بلْ قابلٌ لِلنّقدِ، ولِلنّقضِ، إنَّهُ فعلٌ بشرِيٌّ فِي أمْرٍ إلهيٍّ.

الفاعِلُ: (العقلُ البَشَرِيّ المُسْلِمُ) غيرُ مَعْصُوم، والمَفْعولُ فِيهِ (بيانُ الوَحْي) مَحْفوظٌ حِفظًا إلهيًّا غيرَ مَحْدُودِ الأثرِ بزَمانٍ أوْ مكانٍ أوْ جنسٍ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)

- ويُوقِن أنّ كلّ ما عدَا القرآن والسّنّة النَبويّةِ مِن البَيانِ لَا يَملِكُ الحَقِيقةَ المُطلقة، وما فيه مِنْ خطأ أو خَللٍ أوْ دغلٍ لا يَقِلّ كثيرًا كما فِيه مِن غَيرِ ذلِك أيًا كانَ صَانِعُه مقامًا في العِلمِ والإتقان.
- وَيُوقِنُ أنّ فِي الحياة مَا هُوَ ليسَ بأهلٍ أنْ يَتولّجهُ فضلًا عَنْ أن يقولَ فيهِ، من أنه يُوقِن أنَّ طَاقاتِهِ وإمكانَاتِهِ مَحدُودَةٌ لا تُحِيطُ بكلّ ما هُو حقِيقةٌ في هذه الحَياة.

وَلِذَا كَانَ أوّلُ سِمَةٍ مِنْ سِماتِ (المتقين) الَذِينَ كَانَ القُرآنُ هُدًى لَهُمْ أنّهُمْ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة:١-٣)

• هو عقلٌ كلُّ أمْرِهِ وفِعلِهِ إيْمَانِيّ أيًّا كَانَ مَجَالُ فِعْلِهِ، سَواءٌ فِي بَاعِثِهِ وَمُمَارَسَاتِهِ مَعًا، أوْ فِي باعِثِهِ وَحْدَه، هُو لَا يَنْبَعِثُ إلَى لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ المَأذونِ بِهِ إلَّا مِنْ إيمانِهِ، وهو مُؤمنٌ، إنّها حَالٌ لَا تُفارِقُهُ فِي أيّ أمْرٍ مِنْ أُمُورِ حَياتِهِ.

وهو بهذا يفارق ما يُسمّى (العقلُ الإسلامي) الّذِي هُوَ عَقلٌ يَنتسِبُ إلى (الإسلام) ولا يلزمُ أن يكونَ الإسلام: قُرآنًا وسُنّةً هو مُكوّن حقيقتِهِ وجوهرِه ووجودِه فِي جميعِ مجالاتِها، وعلى جميع مستوياتِ وجودِهِ فيها، بلْ هو عقلٌ قَدْ يَركَبُ مَتْنَ (التّوقفِ) حين لا يفقَه ما في النّصّ المُوثّق، وَقَدْ يَشتَطُّ، فَيَتجاوَزُ(التّوقف) وليلجأ إلى (التّقويل) المواجِهِ للتأويلِ القَويمِ الّذي يتخذه العقلُ الْمسْلِم.

تلْك خمس كليّات جامعةٌ لِلعقلِ المسْلِمِ بَسَطْتُ القَولَ فِيها لِما أراه مِنْ عَظِيمِ أَهَمّيَّةِ فقْهِهَا وَاسْتحضارِها، فَبِهذا العقلِ نَضْبِطُ حركتَنا فِي هذِه الحياةِ قِيامًا برسَالة الاسْتِخلافِ الإعمارية للحياةِ بالحق والخير.

واللهُ الْهادِي إلَى سَواءِ السّبيل.